ساعة وساعة

٤

ليس مني ولست منه

الدكتور
محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

مَاْ أَطْوَلَ اللَّيْلَ يَا جَدَّتِيْ !!

وَبَعْدَ لَيْلَةٍ حَافِلَةٍ بِالأُنسِ ، وَالسَّعَادَةِ ، قَضَاهَا أَفْرادُ عَائِلَةِ أَبِي الحَسَنِ مَعَ أَفْرادِ عَائِلَةِ عَمِّهِمْ أَبِي حُسَيْنٍ... ، وَقُبَيْلَ أَذَانِ الفَجْرِ قَامَتِ الجَدَّةُ.. فتَوَضَّأَتْ ، وَصَلَّتِ بَعْضَ رَكَعَاتٍ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ ، ثُمَّ حَمَلَتِ المُصْحَفَ الشَّرِيْفَ ، وَجَلَسَتْ قُرْبَ النَّافِذَةِ المُطِلَّةِ عَلَى حَدِيْقَةِ البَيْتِ. وَرَاحتْ تَقْرَأُ سُوْرَةَ يُوْسُفَ ، عَلَيْهِ السَّلامُ ، وَفَجْأَةً تَسَلَّلَ (مُمْتَازٌ) مِنْ غُرْفَةِ الأَوْلادِ... وَفَتحَ غُرْفَةَ جَدَّتِهِ ، وَدَخَلَ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ؛ ابْتَسَمَتْ ثُمَّ قَالَتْ: لِمَاذا اسْتَيْقَظْتَ مُبَكِّراً يَا مُمْتازُ؟!

فَقَالَ: أُرِيْدُ أَنْ تَحكي لِي حِكَايَةً ، وَذلِكَ

قَبْلَ أَنْ يَسْتَيْقِظَ إِخْوَتِيْ ، وَأَوْلادُ عَمِّي ، قَالَتِ الجَدَّةُ: وَلِمَ ذَلِكَ يَا مُمْتَازُ؟!

قَالَ: أُرِيْدُ أَنْ أَحْكِيهَا لَهُمْ في طَرِيْقِ العَوْدَةِ.

...وَأَجْلَسَتِ الجَدَّةُ حَفِيْدَهَا إِلى جَانِبِهَا ، وَرَاحَتْ تَقْرَأُ حَتَّى أَنْهَتْ قِرَاءَةَ سُوْرَةِ يُوسُفَ ، ثُمَّ قَبَّلَتِ المُصْحَفَ؛ وَهِيَ تَقُوْلُ: صَدَقَ اللهُ العَظِيْمُ ، حَقّاً إِنَّ فِي السُّوْرَةِ حِكَايَةً رَائِعَةً ، فِيْهَا مِنَ الحِكَمِ ، وَالعِظَاتِ الشَّيْءَ الكَثِيْرَ....

ثُمَّ وَضَعَتْ (مُمْتَازاً) فِيْ حِضْنِهَا ، وَحَكَتْ لَهُ الحِكَايَةَ التَّالِيَةَ .

أنَا أَضْرِبُ رَقَبَةَ القَاضِي !!

كَان يَا مَا كَان... كانَ في قَدِيْمِ الزَّمَانِ

رَجلٌ ذَكِيٌّ ، لَكِنْ ذَاتَ لَيْلَةٍ حَدَثَ لَهُ أَمْرٌ ، وَكَانَ ذَلِكَ في زَمَنِ الخَلِيْفَةِ (المَأْمُونِ):

تَنَبَّأَ الرَّجُلُ ، وَادَّعَى: أَنَّهُ إِبْرَاهِيْمُ الخَلِيْل ، فَجِيْءَ بِهِ إلى مَجْلِسِ الخَلِيْفَةِ.

فَقَالَ لَهُ المَأْمُونُ: إِنَّ إِبْراهِيْمَ ـ عَلَيْهِ السَّلامُ ـ كَانَتْ لَهُ مُعْجِزَاتٌ وَبَراهِيْنُ! فَابْتَسَمَ الرَّجُلُ ، وَقَالَ: وَمَا بَرَاهِيْنُهُ؟

قَالَ: أُضْرِمَتْ لَهُ نَارٌ ، وَأُلْقِيَ فِيْها ، فَصَارَتْ عَلَيْهِ بَرْداً وَسَلاماً ، وَنَحْنُ نُوْقِدُ لَكَ نَاراً ، وَنَطْرَحُكَ فِيْهَا ، فَإِنْ كَانَتْ عَلَيْكَ كَمَا كَانَتْ عَلَيْهِ آمِنَةً؛ آمَنَّا بِكَ!

فَفَكَّر الرَّجُلُ قَلِيْلاً ، ثُمَّ قَالَ: أُرِيْدُ وَاحِدَةً أَخَفَّ مِنْ هَذِهِ!

قَالَ المَأْمُون: فَبَرَاهِيْنُ مُوْسى عَلَيْهِ السَّلامُ!

قَالَ: وَمَا بَرَاهِينُه؟

قَالَ المَأْمُونُ: إِنَّ مُوْسى ـ عَلَيْهِ السَّلام ـ قَدْ أَلْقى عَصَاه؛ فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى! وضَرَبَ البَحْرَ ، فَانْفَلَقَ؛ وَأَدْخَلَ يَدَهُ في جَيْبِهِ؛ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ و...

فَقَالَ الرَّجُلُ: وَهَذِهِ عَلَيَّ أَصْعَبُ مِنَ الأُوْلَى!

فَقَالَ المَأْمُونُ: فَبَراهِيْنُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلامُ!

قَالَ الرَّجُلُ: وَمَا هِيَ؟

قَالَ: إِحْياءُ المَوْتَى!

فَوَقَفَ الرَّجُلُ ، وَقَالَ: يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ! مَكَانَكَ! قَدْ وَصَلْتَ ، أَنَا أضربُ رَقَبَةَ القَاضي يَحْيى بْنِ أَكْثَم ، وَأُحْيِيْهِ لَكُمْ بَعْدَ سَاعَةٍ!

فَصَاح القَاضِيْ يَحْيى: أَنَا أَوَّلُ مَنْ آمَنَ ، وَصَدَّقَ!

مِنَ الحِكَايَاتِ الطَّوِيْلَةِ !!

وَبَعْدَ تَنَاوُلِ وَجْبَةِ الإفْطَارِ اقْتَرَحَتْ (أُمُّ حُسَيْنٍ) أَنْ يَخْرجُوا إلى حَدِيْقَةِ البَيْتِ ، فَيَجْلِسُوا تَحْتَ الأَشْجَارِ المُحِيْطَةِ بِبِرْكَةِ المَاءِ... فَالْجَوُّ صَبَاحَاً جَمِيْلٌ ، وَالهُدُوءُ... وَأَصْوَاتُ الطُّيُورِ وَ... تُعْطِي الْجَلْسَةَ جَمَالاً أَكْثَرَ .

وَبَالْفِعْلِ حَمَلَ الجَمِيْعُ الأَغْرَاضَ ، وَجَلَسُوا حَوْلَ بِرْكَةِ المَاءِ... وَاسْتَمْتَعُوا بالمَنَاظِرِ الخَلابَةِ... أَمَّا (سَوْسَنُ) فَطَلَبَتْ مِنْ جَدَّتِها حِكَايَةً رَاجيةً أَنْ تَكُوْنَ طويلةً .

فَسَأَلَهَا وَالِدُهَا: وَلِمَاذَا تَرْغَبِيْنَ أَنْ تَكُونَ طَوِيْلَةً ؟

أَجَابَتْ (سَوْسَنُ): لأَنَّ لَدَيْنَا وَقْتاً طَوِيلاً، وَأَنَا لا أُحِبُّ الحِكَايَاتِ القَصِيْرَةَ؛ لأَنَّهَا تَنْتَهِي بِسُرْعَةٍ..! وَوَافَقَتِ الجَدَّةُ عَلَى ذَلِك ، ثُمَّ رَاحَتْ تَحْكِيْ هَذِهِ الحِكَايَةَ:

كَانَ فِي مَدِيْنَةِ بَغْدَادَ رَجُلٌ يُدْعَى (أَبَا القَاسِمِ الطُّنْبُورِيَّ) ، وَكَانَ لِهَذَا الرَّجُلِ مَدَاسٌ ـ أَيْ: حِذَاءٌ ـ بَقِيَ يَلْبَسُهُ مُدَّةَ سَبْعِ سِنِيْنَ!

وَكَانَ كُلَّمَا تَقَطَّعَ مِنْهُ مَوْضِعٌ جَعَلَ مَكَانَهُ رُقْعَةً ، ... إِلَى أَنْ صَارَ فِي غَايَةِ الثِّقَلِ!

وَصَارَ النَّاسُ يَضْرِبُونَ بِهِ المَثَلَ ، فَيَقُولُونَ: حِذَاء الطُّنْبُورِيِّ!!

وفي يَوْمٍ مِنَ الأَيَّامِ دَخَلَ أَبُو القَاسِمُ سُوْقَ الزُّجَاجِ ، فَقَالَ لَهُ سِمْسَارٌ:

يَا أَبَا القاسِمِ! لَقَدْ قَدِمَ إِلَيْنَا تَاجِرٌ مِنْ مَدِيْنَةِ(حَلَبَ) وَمَعَهُ حِمْلُ زُجَاجٍ مُذَهَّبٍ قَدْ كَسَدَ ، فَاشْتَرِهِ مِنْهُ ، وَأَنَا أَبِيْعُهُ لَكَ بَعْدَ مُدَّةٍ ، فَتَكْسَبُ بِهِ المِثْلَ مِثْلَيْنِ .

فَمَضى أَبُو القَاسِمُ ، وَاشْتَرَاهُ بِسِتِّيْنَ دِيْنَاراً.

... ثُمَّ إِنَّهُ دَخَلَ إلى سُوْقِ العَطَّارِيْنَ ، فَصَادَفَهُ سِمْسَارٌ آخَرُ ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا القَاْسِمِ! لَقَدْ قَدِمَ إِلَيْنَا مِنْ مَدِيْنَةِ (نَصِيْبِيْنَ) اليَوْمَ تَاجِرٌ وَمَعَهُ مَاءُ وَرْدٍ ، وَلِعَجَلَةِ سَفَرِهِ يُمْكِنُ أَنْ تَشْتَرِيَهُ مِنْهُ رَخِيْصاً ، وَأَنَا أَبِيْعُهُ لَكَ فِيْمَا بَعْدُ ، فَتَكْسِبُ بِهِ المِثْلَ مِثْلَيْنِ .

فَمَضَى أَبُو القَاسِمِ ، وَاشْتَرَاهُ أَيضاً بِسِتِّيْنَ دِيْنَاراً أُخْرَى ، وَمَلأَ بِهِ الزُّجَاجَ

المُذَهَّب وَحمَلَهُ ، وَجَاءَ بِهِ فَوَضَعَهُ عَلَى رَفٍّ مِنْ بَيْتِهِ في الصَّدْرِ.

ثُمَّ إِنَّ أَبَا القَاسِمِ دَخَل حَمَّامَ السُّوْقِ يَغْتَسِلُ، فَقَالَ لَهُ بَعْض أَصْدِقَائِهِ: يَا أَبَا القاسِمِ! أشْتَهِيْ أَنْ تُغَيِّرَ مَدَاسَكَ هَذَا ، فَإِنَّهُ في غَايَةِ الشَّنَاعَةِ ، وَأَنْتَ ذُوْ مَالٍ بِحَمْدِ اللهِ!

فَقَالَ لَهُ أَبُو القَاسِمِ: الحَقُّ مَعَكَ ، فالسَّمْعُ ، وَالطَّاعَةُ.

وَبَعْدَ قَلِيْلٍ ، خَرَجَ أَبُو القَاسِمِ مِنَ الحَمَّامِ، وَلمَّا أَرَادَ أَنْ يَلْبِسَ مَدَاسَهُ؛ رَأَى بِجَانِبِ مَدَاسِهِ مَدَاسَاً آخَرَ جَدِيْدَاً ، فظَنَّ أَنَّ الرَّجُلَ مِنْ كَرَمِهِ اشْتَرَاهُ لَهُ... فَلَبِسَهُ، وَمَضَى إِلَى بَيْتِهِ ، وَكَانَ ذَلِكَ المَدَاسُ الجَدِيْدُ لِلْقَاضِي!!

وَلَمَّا خَرَجَ القَاضِي مِنَ الحمَّامِ لَمْ يَجِدْ مَدَاسَهُ ، فَقَالَ: (أَمَنْ لَبِسَ مَدَاسِي لَمْ يَتْرُكْ عِوَضَهُ شَيْئاً؟)

فَفَتَّشُوا ، فَلَمْ يَجِدُوا سِوَى مَدَاسِ أَبِي القَاسِمِ ، فَعَرَفُوهُ؛ لأَنَّهُ المَدَاسُ الوَحِيْدُ الَّذِيْ يُضْرَبُ بِهِ المَثَلُ!!

فَأَرْسَلَ القَاضِيْ خَدَمَهُ ، فَكَبَسُوا بَيْتَ أَبِي القَاسِمِ ، وَأَثْنَاءَ التَّفْتِيْشِ وَجَدُوا مَدَاسَ القَّاضِي عِنْدَهُ ، فَأَحْضَرُوهُ إِلى مَجْلِسِ القَضَاءِ ، وَلَمَّا رآه القَاضِي قَالَ لَهُ: وَيْحَكَ! أَمَا وَجَدْتَ غَيْرَ القَاضِي تَعْتَدِيْ عَلَيْهِ؟!

ثُمَّ أَمَرَ بِأَنْ يُحْبَسَ مُدَّةً مِنَ الزَّمَنِ ، ثُمَّ يُضْرَبَ ضَرْبَ تَأدِيْبٍ ، وَيُغَرَّمَ بَعْضَ المَالِ... وَبَعْد مُدَّةٍ أُطْلِقَ سَرَاحُ أَبي القَاسِمِ مِنَ السَّجْنِ ، فَأَخَذَ مَدَاسَهُ وَهُوَ غَضْبَانُ ، فَقَالَ

فِي نَفْسِهِ: لابُـدَّ أَنْ أَتَخَلَّصَ مِنْ هَذَا المَدَاسِ اللَّعِيْنِ... ، فَمَضَى إِلى نَهْرِ دِجْلَةَ ، فَأَلْقَاهُ فِيْهِ ، فَغَاصَ فِي المَاءِ .

وَذَاتَ لَيْلَةٍ ـ يَا أَحْفَادِي الحُلْوِيْنَ ـ أَتَى الصَّيَّادُ ، وَرَمى شَبَكَتَهُ فِي نَهْرِ دجْلَةَ ، وَبَعْدَ قَلِيْلٍ أَرَادَ الصَّيَّادُ أَنْ يَرْفَعَ الشَّبَكَةَ ، لَكِنَّهُ وَجَدَهَا ثَقِيْلَةً ، فَفَرِحَ؛ ظَنّاً مِنْهُ: أَنَّها مَلِيْئَةٌ بِالأَسْمَاكِ ، لَكِنْ يَالهَوْلِ المُفَاجَأةِ ، إِنَّهَا اصْطَادَتْ حِذَاءَ الطُّنْبُورِيِّ !!

فَقَالَ الصَّيَّادُ فِي نَفْسِهِ: لأُعَاقِبَنَّ صَاحِبَهُ ، وَأُعِيْده إِلَيْه ، وَبِالفْعلِ ، حَمَلَ الصَّيَّادُ الحِذَاءَ وَأَتى بِهِ بَيْتَ أَبِي القَاسِمِ ، فَلَمَّا قَرَعَ عَلَيْهِ البَابَ؛ لَمْ يَجِدْه ، فَنَظَرَ ، فَرَأى نَافِذَةً إِلى صَدْرِ الْبَيْتِ ، فَرَمَى الحِذَاءَ مِنْها إِلى البَيْتِ ، فَسَقَطَ عَلَى الرَّفِّ الَّذِي فِيْهِ

الـزُّجَـاجُ ومَـاءُ الْـوَرْدِ ، فَـوَقَـعَ ، وَتَكَسَّـر الزُّجَاجُ ، وَتَبَدَّدَ مَاءُ الوَرْدِ!!

وَلَمَّا جَاءَ أَبُو القَاسِمِ ، وَرَأى مَا رَأَى؛ صَاْحَ: وَافَقْراهُ! لَقَدْ أَفْقَرني هَذَا المَدَاسُ المَلْعُونُ! ثُمَّ جَلَسَ يُفَكِّرُ في كَيْفِيَّةِ التَّخَلُّصِ مِنَ المَداسِ اللَّعِيْنِ .

وخَطَرَتْ لَهُ فِكْرَةٌ ، فَحَمَلَ فَأْسَهُ ، وَرَاحَ يَحْفِرُ لَهُ حُفْرةً؛ لِيَدْفِنَهُ فِيْهَا ، وَيَرْتَاحَ مِنْهُ.

فَلَمَّا سَمِعَ الْجِيْرَانُ صَوْتَ الْحَفْرِ؛ ظَنُّوا: أَنَّ أَحَداً يَنْقُبُ الْحَائِطَ عَلَيْهِمْ ، فَرفَعُوا الأَمْرَ إِلـى الحَـاكِـمِ ، فَـأَرْسَـل إِلـى أَبَـي القَـاسِـمِ الطُّنْبُورِيِّ أَنْ يَحْضُرَ إِلَى مَجْلِسِ الحُكْمِ ، فَحَضَـرَ الـرَّجُـلُ ، فَسـأَلَـهُ القَـاضِـي: كَيْـفَ تَسْتَحِلّ أَنْ تَنْقُبَ عَلَى جِيْرَانِكَ حَائِطَهُمْ؟

وَلَمَّا لَمْ يَسْتَطِعْ أَبُو القَاسِمِ تَقْدِيْمَ

البَرَاهِيْن على فِعْلِهِ؛ أَمَرَ الوَالِي بِحَبْسِهِ ، وَتَغْرِيْمِهِ بِبَعْضِ الأَمْوَالِ. وَبَعْد فتْرَةٍ أُطْلِقَ سَرَاحُهُ مِنَ السِّجْنِ وَهُوَ يَلْبَسُ مَدَاسَهُ... وَاحْتَارَ الطُّنْبُورِيُّ في مَدَاسِهِ: مَاذَا يَصْنَعُ بِهِ؟ أَيْنَ سَيَضَعُهُ؟ لِمَاذَا يَرْجِعُ إِلَيْهِ أيْنَمَا وَضَعَهُ؟! و...؟!

وَفي إِحْدى اللَّيَالِي المُظْلِمَةِ حَمَلَ أَبُو القَاسِمِ حِذَاءَهُ إِلَى كَنِيْفِ الخَانِ[1] وَرَمَاهُ فِيْهِ ، فَسَدَّ الحِذَاءُ كَنِيْفَ الخَانِ ، فَفَاض ، وَضَجِر النَّاسُ مِنَ الرَّائِحَةِ الْكَرِيْهَةِ .

وَبَعْدَ التَّفْتِيْشِ عَنِ السَّبَبِ عَرَفُوا أَنَّ مَدَاسَ أَبِيْ القَاسِمِ هُوَ السَّبَبُ في ذَلِكَ كُلِّهِ.

فَحَمَلُوْهُ إِلى الوَالِي ، وَأَخْبَرُوْهُ بِمَا وَقَعَ مِنْ أَضرَارٍ ، وَرَوَائِحَ ، وَنحو ذلِكَ.

---

(١) الكَنِيْف: هُوَ ما يُشْبِهُ المِرْحَاض.

فَمَا كَانَ مِنَ الوَالِيْ إلا أنْ وَبَّخَهُ ، وَأَمَرَهُ بِتَصْلِيْحِ الكَنِيْفِ ، وَغَرَّمَهُ بَعْضِ الأَمْوَالِ ، ثُمَّ حَبَسَهُ .

وَلَمَّا خَرَجَ مِنَ السِّجْنِ أَقْسَم بِاللهِ قَائِلاً: وَاللهِ! مَاعدْتُ أُفَارِقُ هَذَا المَدَاسِ أَبَداً ، ثُمَّ عَمَد إلى المَدَاسِ ، فَغَسَلَهُ ، وَوَضَعَهُ علَى سَطْحِ بَيْتِهِ حَتَّى يَجِفَّ ، فَرَآهُ كَلْبٌ ، فَظَنَّهُ رِمَّةً[1] ، فَحَمَلَهُ ، وَعَبَرَ بِهِ إلى سَطْحٍ آخَرَ ، فَسَقَطَ المَدَاسُ مِنْ فمِ الكَلْبِ ، فَنَزَلَ عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ ، فَآلَمَهُ ، وَجَرَحَهُ جُرْحَاً بَلِيْغاً.

وَلَمَّا رَأَى النَّاسُ المَدَاسَ؛ صَاحُوا: إنَّهُ مَدَاسُ أَبي القَاسِمِ الطُّنبُورِيِّ! فَرَفَعوا الأَمْرَ إلى الحَاكِمِ ، فَأَلْزَمَهُ بِالعِوَضِ ، وَالقِيَامِ بِلَوَازِمِ المَجْرُوحِ مُدَّةَ مَرَضِهِ ، ... عِنْدَ ذَلِكَ

(١) أيْ: العِظَامُ البَالِيَةُ.

نَفَد جَمِيْعُ مَا كَانَ لَدَى الطُّنْبُوريِّ ، وَلَم يَبْقَ عِنْدَهُ شَيْءٌ.

وَفي صَبِيْحَةِ يَوْم مِنْ الأَيَّام حَمَلَ الطُّنْبُورِيِّ مَدَاسَهُ وَمَضَى إِلى القَاضِي ، وَهُنَاكَ قَالَ: أُرِيْدُ مِنْ مَوْلانَا القَاضي أَنْ يَكْتُبَ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذَا المَدَاسِ مُبَارَأَةً شَرْعِيَّةً ، مَفَادُها: أَنَّهُ لَيْسَ مِنِّي ، وَلَسْتُ مِنْهُ ، وَأَنَّ كُلاً مِنَّا بَرِيءٌ مِنْ صَاحِبِهِ ، وَأَنَّهُ مَهْمَا يَأْتِي مَصَائِبُ مِنْ وَرَاء المَدَاسِ فَلاَ أُؤَاخَذُ أَنَا بِهِ .

فَضَحِكَ القَاضِيْ مِمَّا جَرَى مَعَ أَبِي القَاسِمِ الطُّنْبُورِيِّ... وَضَحِكَ جَمِيْعُ مَنْ في مَجْلِسِ القَضَاءِ... وَهَاهِي نِهَايَةُ الحِكَايَةِ الطَّوَيْلَةِ... فَقَالَ مُمْتَازٌ: وَهَا نَحْنُ نُشَارِكُ الجَمِيْعَ الضَّحِكَ من حِكَايَةِ أَبِي القَاسِمِ الطُّنْبُورِيِّ .